WERT
BOOKBINDING
Grantville, Pa
July—Aug. 1987
We're Quality Bound

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY

This book is due on the latest date stamped below. Please return or renew by this date.

روح التوحيد

رفض عبودية غيرالله

السيد علي حسيني خامنئي

8024

روح التوحيد

رفض عبودية غيرالله

ثقافة الثورة الإسلامية

-١-

Khāmini'ī

روح التوحيد

رفض عبودية غيرالله

السيد علي حسيني خامنئي

جمهورية ايران الاسلامية
وزارة الإرشاد الاسلامي

(RECAP)
BP165
.K518
1981

اسم الكتاب: روح التوحيد، رفض عبودية غيرالله
المؤلف: السيد علي حسيني خامنئي
المترجم: محمد على حسين
اصدار: وزارة الإرشاد الاسلامى
الطبعة الاولى / ١٤٠٢ هـ. ق ــ طهران

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY PAIR
32101 014099129

مقدمة المترجم

بسم‌الله الرحمن الرحيم

يوم ارتفع نداء التوحيد في الجزيرة العربية على يد الرسول الخاتم، انقسم المجتمع المكي الى فئتين:

فئة موحّدة عبّأ الاسلام كل طموحاتها وغاياتها في مثل أعلى واحد، هو الله سبحانه وتعالى.

وفئة مشركة تتجه آمالها وأهدافها نحو آلهة متعدّدة مزيّفة.

كلمة «*لا إله إلا الله*» كانت تنبىء بسقوط الأصنام القائمة في النفس الإنسانية الراسفة في أغلال البهيمية، وسقوط كل الآلهة البشرية والحجرية القائمة على طريق المسيرة التاريخية.

من هنا رافق دعوة التوحيد: «صراع» و «حركة»..

صراع بين الاحرار الذين وضع الإسلام عنهم إصرهم والاغلال التي كانت عليهم، والعبيد ممّن أخلد الى الارض واتبع هواه..

وحركة دائبة تكاملية نحو إنشاء المجتمع الإنساني الموحّد المتجه في أفكاره وعواطفه وسلوكه نحو الله.

هذه الحركة التاريخية على طريق النبوة إستمرت زمناً فسجلت في التاريخ أروع صور الإنسانية المتسامية على الصعيد الفردي والاجتماعي، لكنها مالبثت طويلاً حتى بدأت تتعثر في مشيها نتيجة ظهور عوامل سلبية حاولت أن تحرف المجتمع الإسلامي عن طريق الله.

تفاقمت العوامل السلبية على طريق المسيرة، حتى أدّى الأمر الى ظهور آلهة متعددة بين المسلمين يحكمون بينهم بغير ما أنزل الله، وينصبون من أنفسهم قيّماً على البشرية مكان الدين القيم. كما أدى الامر الى أن تعصف الاهواء في المسلمين، وتفرقهم عن سبيل الله، وتسلبهم دورهم القيادي التاريخي على الساحة البشرية. وهذا أدّى الى مانشاهده اليوم في العالم من تيه، وصراع دمويّ مسعور، يكاد يحرق الأخضر واليابس.

وهكذا فَقَد دين آلتوحيد دوره في قيادة البشرية، بل في قيادة المسلمين، بعد أن تخلّى المسلمون عن تنفيذ هذا الدور.

ومن هنا نجد أن نداء «لاإله الاّ الله» يرتفع يومياً مرّات من المآذن في حواضر المسلمين، فلا يحدث في الأُمة هزّة تدفعها لتحطيم الاصنام القائمة بين ظهرانيها ولايحركها على طريق حمل الأمانة الكبرىٰ.

نداء التوحيد يطرق أسماع الآلهة المزيفة في العالم الإسلامي كل يوم، فلا يستثيرها ولايهدد مصالحها، ولايبعث الرعب في نفوسها لانها تعلم أنه يخرج من الحنجرة لامن القلب، وينبعث من نفس هامدة راكدة، لامن نفس ملتهبة متفاعلة مع مفهوم هذا النداء.

الجاهلية الحديثة المهيمنة على عالمنا اليوم، لايمكن أن تستمر.

الوعد الإلهي في إمامة المستضعفين للارض يؤكد ذلك، إضافة الى أن الارقام المادية تجزم بعدم إمكان استمرار الاوضاع القائمة.

الظواهر التي تتجلّى في افق الأحداث العالمية، تنبىء بقرب تحقق الوعد الإلهي، وأبرز هذه الظواهر «ثورة *إيران الاسلامية*»، التي قطعت مرحلة هامة من انتصارها، ولازالت تواصل طريقها بسرعة مدهشة ــ والحمدلله وله المنّة ــ على كل جبهات الصراع مع قوى الاستكبار والجاهلية.

هذه الظاهرة تشكل بداية عودة حقيقية الى طريق الله على صعيد الأفكار والعواطف والحركة. وهذا المقال الذي بين يدي القارىء، نموذج

جيّد لهذه العودة على الصعيد الفكري.

إنه يعالج مسألة التوحيد، لكنه لا يتناولها على شكل فلسفة عقلية محضة باردة كما كانت تطرح في كتب عصور الجمود والخمود. ولا يطرحها على شكل حواشٍ على شروح، وشروح على حواشٍ في إطار جُدران المدارس العلمية، بل يعالج المسألة باعتبارها تصوراً حركياً، وأساساً لعملية الهدم والبناء في المجتمع الإنساني. يطرحها كما طرحها الإسلام في فجره الأول، وكما طرحتها كل الرسالات الإلٰهية في التاريخ.

هذا المقال يمثل بحق جانباً من الثقافة الإسلامية الجديدة التي رافقت التحرك الإسلامي الجديد في إيران. إنها ثقافة تنبض بالحياة والحركة، وتعيش في القلوب والعقول. وتحوّل نداء «*الله اكبر*» و «*لا إلٰه إلاّ الله*» الى حمم وصواعق على رؤوس الطواغيت والمستكبرين، وتستنهض الهِمَم والعزائم، وتفجر الطاقات، وتدفع أبناء الأُمة الى الثورة على كل الاصنام التي تقف على طريق استلام دورهم الرسالي، وحركتهم التاريخية.

في الخاتمة، لابدّ أن أعترف بقصور هذه الترجمة العربية عن بلوغ المستوى الأدبي الرفيع للنص الفارسي. فالكاتب وهبه الله فصاحة أين منها فصاحة سحبان وائل! وطريقته في التعبير والخطاب مستوحاة من كتاب الله العزيز. يخاطب ــ حين يكتب ويتحدث ــ القلوبَ والعقول، ويستثير الافكار والمشاعر. والترجمة عادة ــ أو قل هذه الترجمة على الاقل ــ لا تستطيع أن ترتفع الى مستوى فصاحة النصّ الأصلي.

نسأله سبحانه أن يوفقنا لنقل «الكلمة» التي ضحّىٰ آلاف الشهداء في سبيلها الى أبناء أُمتنا الإسلامية، آملين أن تتوحد جميع الخُطىٰ على صراط الله المستقيم «*وإنَّ هذا صِراطي مستقيماً فاتّبعوه، ولا تتّبعوا السُّبُلَ فَتَفَرّقَ بكم عن سبيلهِ ذلك وصّاكم به لعلّكم تَتّقون*».

وآخر دعوانا أن الحمدُلله ربّ العالمين

بسم‌الله الرحمن الرحيم

يوم نهض نبي الإسلام لحمل رسالة تحرير الإنسان، وأعلن شعار «*لا إله إلاّ الله*» واجه معارضة حادة ومقاومة عنيفة. وكان في مقدمة هذه الجبهة المضادة رؤساء القبائل ووجهاؤها. وكان بقية المعارضين تابعين ومطيعين لهؤلاء السادة والكبراء.

هؤلاء واجهوا الرسول، وواجهوا الفئة المؤمنة. في البداية، بأبسط الأسلحة العدوانية، بالهمز واللّمز والإستهزاء. ثم عمدوا الى أسلحة أشدّ وأفتك كلّما ازدادت الحركة التوحيدية قوة وبلورة. وهكذا كرّرت هذه الجبهة المضادة خلال الاعوام الثلاثة عشر قبل الهجرة تلك المشاهد المخزية في تاريخ الصراع بين الحق والباطل.

هذه الحقيقة التاريخية تستحق مزيداً من الدقة والإمعان، لأنها تشكل مؤشراً هاماً للتعمق في فهم الإسلام، وفي فهم التوحيد الذي يشكل العمود الفقري للإسلام.

إنه لمؤسف جداً، بل إنها لمأساة لكل دعاة تحرير الإنسان أن نشهد انحراف مفهوم التوحيد في عصرنا. فهذا المفهوم يشكل أعمق أسس محتوى الأديان، ولايناظره مفهوم آخر في عمق اتجاهه نحو تحرير الإنسان وإنقاذ البشرية المعذبة على مسرح التاريخ.

الرسالات الإلٰهية عامة عملت خلال التاريخ، على مانعلم، على تغيير

المجتمع، ودفعه في اتجاه يخدم مصالح الانسان وينقذ المستضعفين والمسحوقين، ويقضي على كل مظاهر الظلم والتمييز والعدوان. المحتوىٰ الأخلاقي لكل الأديان الكبرىٰ ــ كما يقول أريش فروم ــ يتكون من التطلّع نحو: العلم، والحب الأخوي، والتخفيف من الآلام، والاستقلال، والشعور بالمسؤولية. (وهناك طبعاً تطلعات سامية شريفة أُخرى لانتوقع من باحث مادي أن يدركها).

كل هذه التطلعات والآمال تتلخص في مبدأ التوحيد. والأنبياء كانوا يطرحون كل أهدافهم من خلال شعار التوحيد، كما كانوا يحققون تلك الأهداف أو يمهّدون لتحقيقها في أعقاب كفاح ينشب تحت راية هذا الشعار.

إنه لمؤسف حقاً لاللموحّدين فحسب، بل لكلّ المتبنين لهذه الآمال والأهداف، أن يبقىٰ محتوىٰ التوحيد مجهولاً أو محرّفاً أو سطحياً لايتجاوز الإطار الذهني، خاصة في عصر تتصاعد فيه ضرورة الإتجاه نحو تلك الأهداف أكثر من أي وقت مضىٰ.

****

ذكرنا أنّ المجابهات التي شهدها عصر فجر الإسلام تستطيع أن توضّح حقيقة هامة بشأن مفهوم التوحيد.

هذه الحقيقة هي إن شعار «لاإله إلا الله» اتجه أولا لمقارعة أولئك الذين حاربوه وعادوه، وهم: أفراد الطبقة المسيطرة المقتدرة في المجتمع.

ردّ الفعل الذي يبديه خصوم كل حركة في المجتمع يعبّر دوماً بوضوح عن الإتجاهات الإجتماعية لتلك الحركة، ومدى عمق تأثير هذه الإتجاهات، كما يمكن فهم الإتجاه الطبقي والإجتماعي للحركة من خلال دراسة طبيعة أعدائها وانتماءاتهم الطبقية، ويمكن قياس عمق تأثيرها عن طريق فهم مدىٰ

تصلّب الأعداء تجاهها.

من هنا، فإن دراسة جبهة أتباع الدعوات الإلهية وجبهة أعدائها، واحدة من الطرق الموثوقة في فهم هذه الدعوات بشكل صحيح.

حين نشاهد أنّ الفئات المقتدرة كانت دوماً سبّاقة في محاربة الرسالات الإلٰهية، نفهم بوضوح أن هذه الرسالات تعارض بطبيعتها هذه الفئات، تعارض تجبّرها وترفها، بل تعارض أساسا هذه الطبقية التي جعلت هذه الفئات متميّزه عن غيرها.

قبل أن ندرس التوحيد من هذا المنظار، منظار مقارعته لكل ألوان السيطرة الإجتماعية، لابد من الإشارة أولا إلى أنّ التوحيد لاينحصر في إطار نظرية فلسفية ذهنية كما هو شائع، بل هو نظرية أساسية حول الإنسان والعالم، ومنهج إجتماعي واقتصادي وسياسي للحياة.

بندر أن نجد في قواميس الألفاظ الدينية وغير الدينية لفظة مثل لفظة التوحيد في استيعابها للمفاهيم الثورية البناءة، ولأبعاد الحياة الإجتماعية والتاريخية للإنسان. لم يكن من الصدفة أن تبدأ كل الدعوات والحركات الإلٰهية في التاريخ بإعلان توحيد الله وحصر الربوبية والألوهية به.

أبعاد محتوى التوحيد نلخّصها فيما يلي:

الف) التوحيد على صعيد التصوّر (النظرة العامة للكون والحياة).

يعني وحدة جميع العالم وانسجامه وائتلاف أجزائه وعناصره.

مبدأ الخلقة واحد، وجميع المخلوقات من ذلك المبدأ الواحد، وليس هناك آلهة متعددة في خلق العالم وإدارته، وهذا يستتبع وحدةَ جميع أجزاء العالم في التكوين والإتجاه.

مَاتَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِنْ تَفَاوُتٍ.

(الملک، ٣)

أوَ لَمْ يَتَفكَّروا في أنفُسِهِم؟ ماخَلَقَ اللهُ السَّماواتِ والارضَ ومابينَهُما إلاّ بالحقِّ وأجَلٍ مُسَمّىٰ.

(الروم، ٨)

العالم المتحرك ـ انطلاقاً من هذا التصور ـ قافلة متّصلة الأجزاء، كاتصال حلقات السلسلة الواحدة، وكارتباط أجزاء الجهاز الواحد العاملة في اتجاه واحد. وكل جزء من هذه الأجزاء، يكتسب معناه الواقعي ويتضح واجبه من خلال فهم مكانته في مجموع هذا التركيب. كل الأجزاء، يعاون بعضها الآخر ويكمّل بعضها الآخر في هذا السير التكاملي الحثيث، وكل واحد منها آلة ضرورية في هذه المجموعة. وكل توقف وفساد وركود وانحراف في أي واحد من هذه الأجزاء يؤدّي الى بطء وفساد وانحراف في جميع الجهاز. وبهذا الشكل ترتبط جميع الذرات مع بعضها برباط معنوي عميق.

ويعني أن للعالم هدفاً ويقوم على أساس حساب وانضباط دقيق، وأن لكل واحد من الأجزاء روحاً ومعنى.

العالم له خالق حكيم. وبناء على هذا، فإن لأصل الوجود كما لكثير من أجزائه، حكمة وغاية واتجاه وهدف.

وَمَا خَلَقنا السماءَ والأرضَ ومابينَهُما لاعِبينَ...

(الأنبياء، ١٦).

العالم بمجموعه، انطلاقاً من هذا التصور، ليس بالحائر العابث، بل هو مثل ماكنة مصنوعة ومرصودة للعمل من أجل هدف معين. يمكن السؤال عن هدفه، ولايمكن السؤال عن أصل هذا الهدف. إنه قصيدة ذات مضمون ينبغي التأمل والتدبر فيها لفهم مضمونها، ولايمكن اعتبارها إطلاقا صوتاً منطلقاً من حركة عشوائية.

ويعنى أبعد من ذلك خضوع كل عناصر العالم وكل الأشياءلله.

فلايوجد بين هذه المجموعة عنصر شاذ متمرّد. كل قوانين الطبيعة وكل مايخضع لسيطرة هذه القوانين منصاع لله وعبدله. فوجود القوانين التكوينية والطبيعية على ساحة الكون لايعني نفي ربوبية الله ومبدئيته.

إنْ كُلُّ مَنْ في السماواتِ والأرضِ إلاّ آتي الرّحمٰنَ عَبْداً.

(مريم، ٩٣)

بَلْ لَهُ مافي السماواتِ والأرضِ كلٌّ لَهُ قانِتُون.

(البقرة، ١١٧)

وَمَا قَدَرُوا اللهَ حقّ قَدْرِهِ، والأرضُ جميعاً قبضَتُهُ يَومَ القيامةِ والسماواتُ مطوياتٌ بِيَمينِهِ سُبحانَهُ وتعالىٰ عمّا يُشرِكون.

(الزمر، ٦٧)

ب) التوحيد على صعيد فهم الإنسان.

يعني وحدة أبناء البشر وتساويهم في ارتباطهم بالله.

إنه رب جميع الناس. وليس لأحد ــ بسبب طبيعته الإنسانية ــ علاقة خاصة متميزة به. ولا لأحد معه قرابة. ليس إله شعب خاص أو قبيلة معينة، ولم يختر شعباً معيناً ليكون ذلك الشعب سيداً والباقي مسودين. كلّ الناس أمام الله سواسية، وليس لاحد عندالله كرامة خاصة إلا بالعمل الصالح، أي بالسعي والمثابرة على طريق خدمة الناس والعمل بأحكام الله المؤدية الى سموّالإنسان.

وَقالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً، سُبحانَهُ بَلْ لَهُ ما في السّماواتِ والأرضِ كُلٌّ لَهُ قانِتُون.

(البقرة، ١١٧)

فَمَنْ يَعمَلْ مِنَ الصالحاتِ وَهُوَ مؤمِنٌ فَلا كُفْرانَ لِسَعْيِهِ وإنّا لَهُ كاتِبُون.

(الانبياء، ٩٤)

يا أيُّها الناسُ إنّا خَلَقْناكُم مِنْ ذَكَر وأُنثىٰ، وَجَعَلناكُم شعوباً وقبائلَ لِتَعارفُوا، إنّ أكرمكُم عندَ اللهِ أتقاكُم.

(الحجرات، ١٣)

ويعني وحدة أبناء البشر وتساويهم في الخلقةِ والتكوين الإنساني.

الإنسانية عنصر واحد يسري في جميع أفراد النوع البشري، بشكل

متساوٍ. ليس هناك آلهة متعددة خلقت فئات بشرية متعددة. ولذلك فلاتوجد ثمة اختلافات وفواصل منيعة في الخلقة، كما إن إله الطبقة الإجتماعية العليا ليس بأقوى من إله الطبقة الإجتماعية السفلى. كل الناس مخلوقات الإله الواحد الأحد، وكلهم متشابهون في جوهر خلقتهم.

يا أيها الناسُ اتّقوا ربّكُم الذي خَلَقكم من نَفْسٍ واحدة.

(النساء، ١)

ويعني تساوي أبناء البشر في الإمكانات المتاحة لهم من أجل السموّ والتكامل.

ألبشر متشابهون في جوهرهم الإنساني وطبيعتهم الإنسانية، وهذه الطبيعة الإنسانية جُبلت بيد باريٍ حكيم. فليس هناك إذن فرد عاجز ذاتياً عن ارتقاء مدارج الصراط المستقيم نحو السموّ والتكامل. من هنا فدعوة الله دعوة عامة، ولا تختص بشعب معيّن أو فئة خاصة. الظروف المختلفة لها آثارها المختلفة على الإنسان، لكن هذه الظروف الطارئة لم تستطع أنْ تصنع من الإنسان بشكل دائم شيطاناً أو مَلَكا وتغلّ يديه وتسلب اختياره وتسد الطريق أمام انتخابه وتغيّره.

وما أرسلناك إلا كافة للناس.

(سبأ، ٢٨)

وأرسلناكَ للناسِ رَسُولا.

(النساء، ٧٩)

يا أيها الناسُ قد جائكم برهانٌ مِنْ ربّكم، وأنزَلنا إليكم نُوراً مُبيناً. فأمّا الذينَ آمنوا بالله واعتصَموا به فسَيُدْخِلُهُم في رحمةٍ مِنهُ وفضلٍ ويَهديهِمْ إليهِ صراطاً مستقيماً.

(النساء ١٧٤ ـ ١٧٥)

ويعني حرية جميع الناس من قيود الأسر، ومن قيود العبودية لغير الله وهو تعبير آخر عن ضرورة العبودية لله.

أفراد البشر الراضخون بشكل من الأشكال تحت سيطرة غير الله (سيطرة فكرية وثقافية، أو اقتصادية، أو سياسية) هم مستعبدون لعباد من أمثالهم بالمفهوم الواسع للعبادة. هؤلاء قد اتخذوا لله أنداداً. والتوحيد يرفض هذا الشكل من الحياة. ويعتبر الإنسان عبداً لله فقط، ويحرّره من العبودية والرضوخ لكل نظام، بل لكلّ عامل مسيطر يضع نفسه مكان الله. فالتوحيد يعني التسليم لله وحده، ويستتبع ذلك رفضَ كل سلطة غير سلطة الله مهما كان شكلها ونوعها.

إنِ الحكمُ إلاّ لله، أمَرَ أنْ لاتَعبُدُوا إلاّ إيّاه، ذلكَ الدينُ القيّم.

(يوسف، ٤٠)

وَقَضَىٰ ربُّكَ أنْ لاتَعبُدُوا إلاّ إيّاه.

(الإسراء، ٢٣)

والتوحيد بالمعنى المتقدم يعني تكريم الإنسان وتثمينه. فالعنصر الإنساني السامي أعظم من أن يخضع ويرضخ لأحد غيرِ الله.

فـالوجود المطلق والجمال المطلق هو وحـده الذي يستحــق عبادةَ الإنسان وثناءه وتعشقه. وهذا النزوع المتسامي هو درجة من درجات السموّ.

لاشيْ ــ غير ذات الله تعالىٰ ــ يـتمتع بـمنزلة يستحــق فــيها عبادة الإنسان ودعاءه. كلّ الأصنام الجامدة والمتحـركة التي فـرضت نـفسها على فكر الإنسان وقلبه وجسمه، واغتصبت حاكمية الله في حياة الإنسان هي رجس وأوثان تُبعد الكائن البشري عن طُهـره ونـقائه الفـطري، وتــذلّه وتصدّه عن حركته. ولابد للإنسان ــ إنْ أراد استعادة مكانـته السامـية ــ أن يـجتنب هذه الأوثان ويغسل عن وجوده عار التلوث بعبوديتها.

فاجْتَنِبوا الرجسَ مِنَ الأوثان، واجتَنِبُوا قَولَ الزور، حُنَفاءَلله غَيرَ مُشركـينَ بِـهِ، وَمَـنْ يُشركْ بِالله فَكأنَّما خَرَّ مِـنَ السماءِ فَـتَخْطَفَهُ الطيرُ أو تَهوي بِهِ الريحُ مِنْ مَكانٍ سَحيق.

(الحج ٣٠ ــ ٣١)

لاتجعلْ مَعَ الله إلٰهاً آخرَ فَتَقْعُدَ مَذْموماً مَخْذُولا.

(الإسراء، ٢٢)

ولا تَجْعَلْ مع الله إلٰهـاً آخَـرَ، فَـتُلقَىٰ في جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحورا.

(الإسراء، ٣٩)

يعني وحدة وانسجام حياة الإنسان و وجوده.

حياة الإنسان مركبة من الذهن والواقع، مـن الفكر والعمل. وإذا خضع

واحد من هذين الجانبين، باجمعه أو بقسم منه، لأعداء الله، أي إذا أصبح الذهن إلهياً والواقع غير إلهي، أو أصبح الواقع إلهياً والذهن بعيداً عن الله. حينئذ تظهر الإزدواجية في حياة الإنسان، ويبرز الشرك في عبودية الله.

الإنسان في مثل هذه الحالة كمؤشر مغناطيسي ظهر في مجاله المغناطيسي عنصر غريب. المؤشر عندئذ إما أن ينحرف عن اتجاهه الطبيعي انحرافا تاماً، أو يبقى يتأرجح يَمنةً ويسرة. أي سوف ينحرف الإنسان عن الصراط المستقيم المتناسب مع طبيعته الإنسانية، ينحرف عن الله.

أفَتُؤمنونَ ببعضِ الكتابِ وتَكفُرونَ ببعض؟ فَمَا جزاءُ مَن يفعلُ ذلك مِنكُم إلاَّ خِزيٌ في الحياةِ الدّنيا، ويَومَ القيامةِ يُردّونَ إلى أشدّ العَذاب..

(البقرة، ٥٨)

ويعني انسجام الإنسان مع العالم المحيط به.

الساحة الكونية الفسيحة تزخر بقوانين الخليقة، ولا تغرب أدنىٰ ظاهرة طبيعية عن إطار هذه القوانين. وبانسجام هذه القوانين وتعاضدها والتقائها ينتظم شكل الكون ويسود في العالم هذا النظام الرائع المشهود. الإنسان جزء من هذه المجموعة وتتحكم فيه قوانينها العامة، إضافة الى قوانين خاصة. غير أنّ هذه القوانين الخاصّة متناسبة ومنسجمة أيضاً مع قوانين الظواهر الأُخرىٰ.

أما الإنسان، خلافاً لسائر الظواهر الأُخرىٰ المسخّرة للحركة على طريقها الطبيعي الفطري، يتمتّع بقوة إرادة وقدرة اختيار. وعليه أن يطوي طريقه الفطري الطبيعي عن اختيار، لأنه طريق سموّه وكماله. وهذا يعني أنه قادر على الإنحراف عن هذا الطريق الطبيعي.

فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شاءَ فَلْيكفُر.

(الكهف، ٢٩)

التوحيد يدعو الإنسان الى السير على طريقه الطبيعي الفطري المنسجم مع كل الكون، وبذلك يربط الكائن البشري ـ باعتباره عضواً أصليا من أعضاء هذا الكون ـ في عمله وسعيه بسائر أجزاء الكون، ويخلق بذلك وحدةً وانسجاماً تامّين.

أَفَغَيرَ دينِ اللهِ يَبْغُون، وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ في السماواتِ والأرضِ طوعاً وكُرهاً وإليه يُرجَعُون.

(آل عمران، ٧٨)

أَلَمْ تَرَ أنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ في السماواتِ وَمَنْ في الأرضِ والشمسُ والقمرُ والنجومُ والجبالُ والشجرُ والدوابُ وكثيرٌ مِنَ الناسِ.

(الحج، ١٨)

ج) التوحيد على صعيد المناهج الإجتماعية (الإقتصادية والسياسية...)

يسلب من كل مصدر غير الله صلاحيةَ الإنفراد بوضع مناهج مستقلة لشؤون الحياة والإنسان.

فالله خالق الإنسان والكون والمصمّم لهذا النظام الكوني المنسجم،

والعالم بإمكانات الإنسان واحتياجاته.

الله يعلم بما ينطوي عليه الكائن البشري من ذخائر دفينة وطاقات مكنوزة، وبما ينطوي عليه الكون من كنوز وإمكانات، ويعلم ميزان وأبعاد استثمار هذه الكنوز والإمكانات، ويعلم كيف تلتقي هذه جميعاً مع بعضها.

من هنا فهو وحده القادر على وضع منهج لطريقة الحياة، ولعلاقات الإنسان، ومنهج حركته في إطار نظام التكوين. وهو وحده القادر على وضع قوانين الحياة وتعيين شكل النظام الإجتماعي.

اختصاص هذا الأمر بالله نتيجة طبيعية ومنطقية للخالقية والألوهية. فكل تدخّل من الآخرين ــ إذن ــ لتعيين المسيرة العملية للبشرية هو تدخل في حاكمية الله وادعاء للألوهية وباعث على الشرك.

فلا وربّكَ لايُؤمنونَ حتّىٰ يُحكّموكَ فيما شَجَر بينَهُم، ثُمّ لايَجِدُوا في أنْفُسِهِم حَرَجاً ممّا قَضَيْتَ ويُسلّمُوا تَسليماً.

(النساء، ٦٥)

وَما كانَ لمؤمنٍ ولا مؤمنةٍ إذا قَضَىٰ اللهُ ورسُولُهُ أمراً أنْ يكونَ لَهُمُ الخِيَرَةُ مِنْ أمْرِهِم، وَمَنْ يعصِ اللهَ ورَسُولَهُ فقدْ ضَلّ ضَلالاً مبينا.

(الاحزاب، ٣٦)

يسلب حق الولاية على المجتمع وحياةِ الإنسان مِنْ غير الله.

ولاية الإنسان على الإنسان، لوقامت على أساس حق مستقل وبدون

مسؤولية، لاستلزمت الظلم والطغيان والعدوان. الفرد الحاكم والجهاز الحاكم لايستطيع أن يتخلّص من الإنحراف والطغيان والإفراط إلاّ إذا كانت زمام الأُمور معطاة بيد هذا الفرد أو هذا الجهاز من قِبل سلطة عليا ضمن إطار مسؤوليات متناسبة. وهذه السلطة العليا في المدرسة الدينية هي الله المحيط بكل شيئٍ علماً.

لايَعزُبُ عنهُ مثقالُ ذرةٍ في السماواتِ ولا في الأرض.

(سبأ، ٣)

وَلَو تقوّلَ عَلَينا بعضَ الأقاويلِ لأخَذْنا مِنْهُ باليَمينِ، ثُمّ لقَطَعنا مِنهُ الوَتين.

(الحاقة، ٤٤)

هذه السلطة العليا لاتنطلي عليها خدعة كما قد تنطلي على الجماهير، ولا يمكن اتخاذها وسيلة للسيطرة والتجبّر كما تُتخذ الأحزاب، ولا يمكن المساومة معها كما يمكن مع علّية القوم وزعمائهم.

وبنظرة أعمق: لو استلزم نظم الحياة انتهاء كل أجهزة الحياة الإجتماعية بنقطة واحدة، وتفرد قوة مسيطرة بمسك زمام جميع الأُمور، لما كانت تلك القوة المسيطرة سوى خالق الكون والإنسان.

فالحكم حق خاص بالله، ينفّذه مَنْ عيّنهم الله، أي أولئك الذين تتجسّد فيهم أكثر من غيرهم تلك المعايير والخصال المحدّدة في الأيديولوجية الإلٰهية. وهؤلاء منفّذون وحفَظَة للقوانين الإلٰهية.

قُلْ أغيرَ اللهِ أتّخذُ وَلياً؟ فاطِرِ السماواتِ والأرضِ، وَهُوَ يُطعِمُ ولا يُطْعَم، قُل إني أُمِرتُ أنْ أكونَ أولَ مَنْ أسلَمَ ولا تكونَنّ مِنَ المُشرِكين.

(الأنعام، ١٤)

إنّما وليّكُمُ اللهُ وَ رَسولُهُ والذينَ آمَنُوا الذينَ يُقيمونَ الصلاةَ ويُؤتُونَ الزكاةَ وَهُمْ راكعون.

(المائدة، ٥٥)

قُل أعوذُ بربّ الناسِ، مَلِكِ الناسِ، إلهِ النّاسِ.

(الناس، ١ ــ ٤)

ويعني اختصاص الملكية المطلقة الأصلية لكل نِعَم الكون وذخائره بالله.

ليس لأحد أن يملك ويتصرف مباشرة ومستقلاً. كلُّ شيئٍ أمانة بيد الإنسان لاستثماره والإستعانة به على طريق السموّ والتكامل. ليس للإنسان المنَعّم أنْ يفسد ويتلف نِعَم هذا العالم التي هي ثمرة سعي آلاف الظواهر والعناصر في هذا العالم، أو أن يهمل هذه النِعَم أو يستثمرها في طريق غير طريق السموّ الإنساني. ما في يد الإنسان، وإن كان ملكاً له، فهو عطاء إلهي. من هنا ينبغي أن يتجه استثمار هذا العطاء على الطريق الذي عيّنه الله، أي في طريقه الطبيعي الأساسي، في الطريق الذي خُلق من أجله في الحقيقة. واستثمار هذا

العطاء الإلٰهي في غير هذا الطريق انحراف عن اتجاهه الطبيعي، إنه الفساد.

دور الإنسان إزاء هذه النعم الإلٰهية المتنوعة هو استثمارها بشكل صحيح، وفتح مغاليق كنوزها، وقبل ذلك إحياؤها والبلوغ بها الى درجة الكمال طبعاً.

قُلْ لِمَنِ الأرضُ ومَنْ فيها إنْ كُنتُم تَعلَمون، سيَقُولُون للهِ، قُلْ أفلا تَذَكّرون؟

(المؤمنون، ٨٦ ــ ٨٧)

هُوَ الذي خَلَقَ لكُم ما في الأرضِ جميعاً.

(البقرة، ٢٩)

اعبدوا الله، مالكُم مِنْ إلٰهٍ غيرُهُ هو أنشأكُم مِنَ الأرضِ واستعمَركُم فِيها.

(هود، ٦١)

وَالذينَ يَنقُضُونَ عهدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ ميثاقِهِ وَيقْطَعُونَ ما أمَرَ اللهُ بِهِ أنْ يوصَلَ ويُفْسِدُون في الأرضِ، أولئكَ لَهُمُ اللعنة.

(الرعد، ٢٨)

ويعني أن أفراد البشر متساوون في حق استثمار نِعَم الحياة.

الإمكانات والفرص متكافئة أمام جميع البشر ليستثمر كل منهم هذه النِعَم قدَرَ حاجاته وضمن إطار سعيه وعمله. هذه الساحة الكونية لاتوجد فيها

منطقة خصوصية محصورة بفئة معينة. الجميع يستطيعون أن يستثمروا نعم الحياة المتنوعة قَدَر همتهم وإرادتهم، دون تمايز بينهم في العنصر أو الموقع الجغرافي والتاريخي، بل وحتى في الإنتماء الأيديولوجي.

هُوَ الذي خَلَقَ لكُم ما في الأرضِ جَميعاً.
والأنعامُ خَلَقَها لَكُم.
لَكُم فيها جَمال.
تَحْمِلُ أثقالَكُم.
أنْزَلَ مِنَ السماءِ ماءاً لكُم.
يُنْبِتُ لَكُم بِهِ الزرعَ.
وَما ذرأ لكُم في الأرضِ.
لِتَركبُوها.
لِتأكلُوا مِنْهُ.

وكل هذه الآيات من مطلع سورة النحل تخاطب جميع البشر دون أن تتّجه في خطابها الى فئة خاصة أو طائفة خاصة، وهي جاءت في سياق آياتٍ أخرى تخاطب جميع البشر أيضا مثل:

وَلَو شاءَ اللهُ لَهَداكُم أجمَعين.
وإلٰهُكُم إلٰهٌ واحدٌ.

***

هذا جانب من المحتوىٰ العميق الواسع للتوحيد. ومن خلال هذا الإستعراض السريع يتضح بجلاء أنّ التوحيد ليس بالنظرية الفلسفية الذهنية

غير العملية المعزولة عن الحياة وعما يرتبط بحركة المجموعات البشرية وبحركة الفرد ونشاطه. التوحيد لايكتفي باستبدال معتقد بمعتقد آخر. بل إنه:

من جهة، نظرة عامة للكون والحياة تشتمل على مفهوم خاص للعالم وللإنسان ولمكانة الإنسان بين ظواهر العالم ومكانته في التاريخ، ولإمكاناته واحتياجاته ومتطلباته الذاتية، ولا تجاهه ومراحل سموّه وكماله.

ومن جهة أُخرى، منهج إجتماعي شامل متناسب مع طبيعة الإنسان، ويستطيع الكائن البشري في إطاره أنْ يسمو على مدارج كماله بسهولة وسرعة. إنه اطروحة خاصة للمجتمع تتضح فيها الخطوط العامة والأساسية للكيان الإجتماعي.

من هنا حين يرتفع نداء التوحيد في المجتمعات الجاهلية (المجتمعات القائمة على أساس الجهل بحقيقة الإنسان) والمجتمعات الطاغوتية (القائمة على أساس المعاداة للقيم الانسانية الحقة) فانه يحدث تغييراً شاملا، ينير القلوب المظلمة ويحيي النفوس الهامدة، ويبعث هزة في جسد المجتمع الراكد، وينظّم الشؤون المبعثرة المتناقضة لذلك المجتمع. يحدث التوحيد تغييراً في المحتوى النفسي، والمؤسسات الاقتصادية والاجتماعية، وفي القيم الأخلاقية والانسانية. وبعبارة قصيرة، يهاجم التوحيد الوضع الجاهلي القائم والسلطة التي تحمي هذا الوضع، والجوّ الذي يغذّي هذا الوضع ويمدّه بالحياة.

التوحيد ــ اذن ــ ليس فقط أُطروحة ترتبط بمسألة نظرية محضة أو مسألة ذات إطار عملي محدود، بل إنه أيضا طريق جديد أمام الانسان، يستهدف تقديم أُسلوب آخر للعمل والحياة وان استند الى تحليل ذهني ونظري.

انطلاقا من هذا الفهم لمحتوى التوحيد نعتقد أنّ هذا الأصل يشكّل حجر البناء في صرح الدين، ومحتواه الأساس، والقاعدة التي يقوم عليها. فهم

التوحيد على أنه نظرة لما وراء الطبيعة أو انه على أحسن الأحوال أُطروحة أخلاقية عرفانية، هذا الفهم لايتناسب اطلاقا مع الأيديولوجية الاسلامية الحية التي تنطوي على أُطروحة كاملة للحياة الاجتماعية.

كان هناك على مرّ التاريخ طبعاً أفراد، مع إيمانهم بالله وبالتوحيد، غفلوا أو تغافلوا عن المحتوىٰ العيني والعملي ــ وخاصة الاجتماعي ــ لهذه العقيدة. هؤلاء وطّنوا أنفسهم على المعيشة في كل زمان ومع كلّ الظروف بحيث لاتكاد تميّزهم عن الكافر بالتوحيد. أي إن هذه العقيدة لم تبعث فيهم شعور التعارض مع الوضع غير التوحيدي القائم، ولم يثقل كاهلهم عبء الشرك المستفحل في مجتمعهم.

في مطلع الإسلام، كان هناك مجموعة من الحنفاء يعيشون في مكة مركز الوثنية وعاصمة أصنام العرب الكبرى. لكن وجودهم لم يكن له أدنىٰ تأثير على الجوّ الفكري والإجتماعي، لأن مفهوم هؤلاء الحنفاء عن التوحيد لم يتعدّ أذهانهم وقلوبهم وإطار حياتهم الخاصة، ولم يكن له أدنىٰ تواجد في تلك المتاهات الجاهلية، ولا أقلّ تأثير على الحياة المؤسفة القائمة هناك. هؤلاء الذين يسمّون بالموحّدين كانوا يعيشون مع غيرهم على ساحة واحدة ويطوون مسيرة تلك الحياة بنفس طريقة غيرهم دون أن يزعجهم شيء. هذا الفهم الذهني للتوحيد يتميّز بهذه الصفة من الخمول والانعزال عن الحياة وخاصة الحياة الإجتماعية.

في مثل هذه الأجواء أعلن الإسلام مفهوم التوحيد باعتباره عقيدة ملتزمة وتنظيماً للحياة و أُطروحة جديدة للمجتمع. وبهذا الشكل أعلن هويته باعتباره دعوة إنقلابية لكل مخاطبيه، المؤمنين منهم والكافرين. فكل من سمع نداء الإسلام عَلِم أنه نظام إجتماعي واقتصادي وسياسي جديد لايتلاءم إطلاقا مع الأوضاع التي كانت قائمة في العالم آنذاك، بل إنه يستهدف إزالة الوضع القائم وإبداله بوضع آخر.

بسبب هذه الأُطروحة، اندفع المؤمنون صوب الدعوة باشتياق ولهفة وولع شديد وأسلموا لها، ولهذا السبب أيضا هبّ المعارضون والكافرون ليقاوموا نداء التوحيد بوحشية وضراوة، وليصعّدوا عداءهم يوماً بعد يوم.

هذه الحقيقة التاريخية، بمقدورها أن تكون معياراً لتقييم صحة أو عدم صحة ادعاء التوحيد في كل زمان ومكان. من الصعب أن نصدّق وجود التوحيد في نفوس قوم يشبهون موحدي مكة قبل ظهور الإسلام.

التوحيد المهادن.. التوحيد المداهن مع كل الأنداد والآلهة المزيفة.. التوحيد الذي لايعدو أن يكون فرضية ذهنية، ليس إلاّ نسخة ممسوخة لتوحيد الأنبياء.. ومن الطبيعي أن يخلو مثل هذا التوحيد من ديناميكية دعوة الأنبياء.

من خلال هذه الرؤية نستطيع أن نفهم سبب انتشار نور الإسلام وتقدمه في العصور المتقدمة، وسبب تراجعه وتقهقره وضعفه في العصور المتأخرة.

إسلام رسول الله (ص)، كان يضع التوحيد أمام الناس باعتباره طريقاً ومسلكاً. وإسلام العصور التالية، طرح التوحيد باعتباره نظرية يدور حولها البحث والجدل في المجالس والمحافل. كان الكلام هناك يدور حول تصوّر جديد للعالم ونظرية جديدة لحركة الحياة، وهنا الكلام يدور حول مسائل كلامية فرعية خالية من كل عطاء حيّ. كان التوحيد هناك يشكل الهيكل العظمي للنظام القائم، والمحور لكل العلاقات الإجتماعية والاقتصادية والسياسية، وهنا يتمثل في لوحة فنية جميلة معلقة في صالة، الهدف منها إكمال مظاهر الزينة في الصالة. وأي دور فعال يمكن أن نتوقّعه من مثل هذه الظاهرة الكمالية؟!

****

مما تقدم يتضح أنّ التوحيد من منظار عملي أُطروحة للمجتمع ومنهج

للحياة وقاعدة للنظام الذي اعتبره الإسلام متناسباً مع طبيعة الإنسان ونموه وسموه. وهو من منظار نظري يشكل القاعدة الفكرية الفلسفية لذلك النظام.

بعد هذه التمهيدات، نستطيع أن نعود الى بداية المقال، وندرس المسألة من الزاوية الخاصة التي استهدفناها فيه.

قلنا إن المجابهات الاولى التي واجهها نداء التوحيد انطلقت من ذوي القدرة والسلطة في المجتمع. وهذا مؤشّر يُثبت أنّ الضربة التي وجهها هذا الشعار اتجهت أول ما اتجهت وأكثر ما اتجهت نحو تلك الفئة المقتدرة المسلطة، أو نحو الفئة المستكبرة على حدّ التعبير القرآني.

وقلنا إن الدعوات التوحيدية في مختلف عصور التاريخ، ما أن انطلقت في المجتمع حتى اتخذت موقفها الواضح من المستكبرين، وعلى أثر هذا الموقف، إنقسم المجتمع إلى فئتين متناقضتين: الفئة المعارضة المستكبرة، والفئة المؤمنة المستضعفة.

وقلنا أخيراً أنّ رد الفعل الذي تبديه هاتان الفئتان تجاه رسالة التوحيد هي الخاصة التي تميّز التوحيد الحقيقي الأصيل. أي انّ التوحيد ــ متى ما أُعلن بمفهومه الأصيل وبشكله الصحيح ــ يواجه هذه المجابهات وردود الفعل الإجتماعية.

والآن علينا أن نتفحّص أبعاد التوحيد لنرى أي بُعد من هذه الأبعاد يتعارض مباشرة مع مصالح الطبقة المستكبرة ويصطدم مع وجودها. بعبارة أُخرىٰ علينا أن نفهم تلك النظرة التوحيدية التي تستثير المستكبرين وتدفعهم الى اتخاذ موقف المجابهة الحادة.

تفهّمُ شخصية المستكبر في القرآن الكريم تعيننا كثيراً على فهم هذا الموضوع.

القرآن الكريم يعطي في أكثر من أربعين موضعاً صورة عن المستكبر وخصائصه النفسية ومكانته الإجتماعية وأهدافه وأطماعه التوسعية

الإستثنارية. وبشكل عام نجد القرآن يحدّد للمستكبر الخصائص التالية:

يرفض الله بالمفهوم الذي تعبر عنه عبارة: «لا إله إلا الله» (أي حصر الحاكمية والمالكية المطلقة به تعالى)، وإن لم يرفض الله كحقيقة ذهنية تشريفاتية محدودة الإطار:

إنّهم كانوا إذا قِيلَ لَهُم لا إلٰهَ إلاّ الله يَستكبرُون.

(الصافات، ٣٥)

فَاستكبَروا في الأرض بغيرِ الحقّ وقالُوا مَنْ أشدُّ منّاقوّة؟

(فصلت، ١٥)

وإذا تُتلىٰ عَلَيهِ آياتُنا ولّىٰ مُستكبِراً كأنْ لَمْ يسمَعْها كأنّ في أُذُنَيهِ وَقراً فبشّرهُ بِعَذابٍ أليم.

(لقمان، ٧)

ويتخّذ موقف الجاحد والمكذب تجاه دعوة النبي التغييرية التحررية، ويجابهها بحجة أنه أقدر من غيره على فهم الطريق الصحيح، وبحجة أن الله ينبغي أن يخاطبه مباشرة:

وَقالَ الذينَ كفروا للذينَ آمَنوُا: لَو كانَ خيراً ما سبقونا اليه.

(الاحقاف، ١١)

وإذا جائتهم آية قالوا: لن نؤمِنَ حتىٰ نُؤتىٰ

مثلَ ما أوتي رسلُ الله. (الانعام، ١٢٤)

ويتهم المستكبرون صاحب الدعوة بأنه يستهدف الحصول على الجاه والمنزلة، كما يتذرعون بالتقاليد البالية السائدة لنظامهم المسيطر للحدّ من انتشار الدعوة في المجتمع.

قالوا: أجِئتَنا لِتَلْفِتَنا عَمّا وَجَدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء في الارض؟ وما نحن لكما بمؤمنين

(يونس، ٧٨)

ويستعينون بالقوة والتزوير وبمختلف سبل الخداع والتضليل لإبقاء الناس تحت سيطرتهم وعبوديتهم، ويدفعونهم الى مجابهة كل دعوة تحررية:

وقالوا ربنا إنا أطَعنا سادتَنا وكبراءنا فأضلّونا السبيلا.

(الاحزاب، ٦٧)

فَيقُولُ الضعفاءُ للذينَ استكبروا: إنا كُنّا لكم تَبَعاً، فهل أنتم مُغنُون عنّا نَصِيباً مِنَ النار؟

(المؤمن، ٤٧)

قالَ الملأُ مِنْ قوم فِرعَونَ إنّ هذا لساحرٌ عليمٌ يريدُ أنْ يُخرجَكُم مِنْ أرضِكُم فماذا تأمُرون؟

(الأعراف ١٠٨-١٠٩)

وأخيراً يعرّضون النبي وأتباعه الثائرين على النظام المسيطر وعلى الاتجاه الفكري السائد لأقسى الحملات وأشد أنواع التعذيب والأذى والتنكيل.

قُتِلَ أصحابُ الأخدُود. النارِ ذاتِ الوَقود. إذْ هُمْ عَلَيهْا قُعُود. وَهُمْ علىٰ ما يَفعَلُونَ بالمؤمنينَ شُهُود...

(البروج ٣-٧)

وَقالَ فرعونُ ذَروني أقتُلُ موسىٰ وَلْيَدعُ ربّه، إني أخافُ أنْ يبدّل دينَكم، أو أن يُظهر في الأرضِ الفَساد.

(غافر، ٤٦)

هذه هي باختصار الخصائص التي يذكرها القرآن الكريم للمستكبرين. وهناك مواضع أُخرى تجاوز فيها القرآن رسم الصورة الى وضع الاصبع على أفراد مشخصين ينتمون الى اتجاهات معينة:

ثم بعثنا مِنْ بَعدِهم موسى وهارون إلى فرعون وملئِه بآياتِنا فاستكبروا..

(يونس، ٧٥)

وقارونَ وفرعونَ وهامانَ، ولقد جاءهم موسىٰ بالبيناتِ فاستكبروا في الأرض

(العنكبوت، ٣٩)

فرعون معروف،وهامان مستشار فرعون الخاص، والشخصية الأُولى في جهاز فرعون طبعاً. و«ملأفرعون» هم علّية القوم في هذا الجهاز، والسائرون في ركاب فرعون ومشاوروه ومساعدوه. (راجع الآية ١٢٦ من سورة الأعراف). وقارون هو صاحب الثروات الطائلة والكنوز التي «مفاتحُهُ لَتنوءُ بالعُصبةِ أولي القوة».

و باستعراض عشرات الآيات من كلام الله العزيز بشأن الإستكبار، نستطيع أن نفهم المستكبر على النحو التالي: الجناح المسيطر في المجتمع الجاهلي، الماسك ــ دون استحقاق ــ بزمام السلطة السياسية والإقتصادية. و استمراراً لاستثماره و تسلطه الجابر، يمسك أيضا بزمام الأفكار والمعتقدات المسيطرة على الأذهان، ويعمل بأساليب متنوعة على ملء الأذهان بأفكار تدفع الأفراد الى الإستسلام له والى الإنسجام مع الاوضاع القائمة. و هذا المستكبر يهبّ لمقارعة كل دعوة الى التوعية، فما بالك إذا كانت الدعوة إنقلابية تغييرية!! حفاظاً على مصالحه بل على وجوده.

****

والان نعود الى موضوعنا الأساسي:

كيف عرض الأنبياء عقيدة التوحيد؟

الجواب على هذا السؤال يوضح مواضعَ الحساسية التي تستثير المستكبر في هذه العقيدة، وسببَ حساسيته من هذه المواضع، وسببَ عدم قدرة المستكبر على تحمل عقيدة التوحيد حين تطرح بهذه الكيفية. وجدير بالذكر أنّ الجواب على هذا السؤال يوضح لنا من جانب آخر أهمية التوحيد باعتباره القاعدة الأساس التي تقوم عليها الرسالة.

نعلم أنّ شعار التوحيد هو أول نداء يرفعه النبي في المجتمع:

النبي الخاتم رفع في مكة شعار:

قولوا لا إله إلاّ الله تُفلحوا

والقرآن الكريم نقل عن أنبياءكرام مثل: نوح وهود وصالح وشعيب و... خطابهم لأممهم، وكان الخطاب يدور حول محور التوحيد:

ياقوم اعبدُوا اللهَ مالَكُم من إلهٍ غَيرُه.

(الأعراف، ٥٩)

هذه الشعارات كما ترى تستند بالدرجة الأُولىٰ إلى رفض كل عبودية لغير الله. النبي بهذه الشعارات يهيب بالجهلة الغافلين المنغمسين في أوحال النظام الجاهلي الطاغوتي أن يكفوا عن عبودية كل قطب وقدرة غير الله. وهذا يعني أن النبي يبدأ دعوته بإعلان الحرب على كل الذين يجعلون من أنفسهم آلهة من دون الله.

من هم أدعياء الألوهية في المجتمع؟ وما معنى إعلان الحرب على الآلهة المزيفة؟ وما هو الوضع الذي تريد دعوة الانبياء أنْ توجده في المجتمع؟

عبارة «أدعياء الألوهية» توحي الى الأذهان عادة أولئك الذين جعلوا من أنفسهم «إلٰها»، أي أولئك الذين ادّعوا لأنفسهم تلك القدرة الخارقة التي كان البشر يؤمن بها على مرّ التاريخ بشكل من الأشكال.

وهذا فهم سطحي للعبارة.

كان هناك طبعاً في التاريخ مجرمون تافهون استغلّوا قدرتهم السياسية والإجتماعية، فأوحوا الى أفراد أتفه منهم أنهم آلهة بالمعنىٰ المتقدم أو أنهم يحملون جانباً من روح الإله. ولكن لو ألقينا نظرة على المعنىٰ الواسع لألفاظ «العبادة» و«الربوبية» و«الألوهية» في القرآن، لاستنتجنا أن إطار مفهوم «أدعياء الألوهية» أوسع من ذلك الفهم بكثير.

استعمال مادة «العبادة» في القرآن الكريم يفيد أن العبادة تعني التسليم والطاعة المطلقة تجاه إنسان أو أي موجود آخر. حين نستسلم استسلاما أعمىٰ لشخص، ونتحرك وفقا لرغباته وأهوائه وأوامره فقد عبدناه، وكل قوة تستطيع أن تُخضعنا لها، وتسيطر على أجسامنا ونفوسنا، وتسخّر طاقاتنا وفقاً لرغباتها، فإنها تصيّرنا عبيداً لها سواء كانت هذه القوة داخل أنفسنا، أم في محيطنا الخارجي. ومن أمثلة هذه الاستعمالات القرآنية:

موسى يخاطب فرعون في بداية دعوته معاتباً يقول:

وتلكَ نعمةٌ تمنّها علي أن عبّدتَ بني إسرائيل.

(الشعراء، ٢٢)

فرعون وبطانته يخاطب بعضهم بعضاً فيقولون:

أنؤمن لبشرين مِثلنا وقومُهُما لَنا عابِدُون.

(المؤمنون، ٤٩)

إبراهيم يخاطب أباه قائلا:

يا أبَتِ لا تَعبُدِ الشيطانَ إنّ الشيطانَ كان للرحمٰنِ عصياً.

(مريم، ٤٤)

رب العالمين يخاطب البشرية:

ألَمْ أعْهَدْ إليكُم يا بَني آدمَ أنْ لا تَعبُدُوا الشيطانَ إنه لكُم عدوٌ مُبين؟

(يس، ٦٠)

الله تعالى يعد عباده الصالحين:

والذينَ اجتَنَبوا الطاغوتَ أنْ يَعبُدُوها وأنابوا إلى الله لهم البُشرىٰ.

(الزمر، ١٧)

وحول أولئك الذين يعيبون على المؤمنين إيمانهم يقول تعالى:

مَن لعَنهُ اللهُ وغَضِبَ عَليه وجَعَلَ مِنهُمُ القِردَةَ والخنازير وعَبَدَ الطاغوتَ أولئكَ شرٌ مكاناً واضلّ عَنْ سَواءِ السبيل.

(المائدة، ٦٥)

هذه الآيات عبرت عن الطاعة لفرعون ولبطانته وللطاغوت وللشيطان بكلمة «عبادة». ومن خلال دراسة جميع آيات القرآن في هذا المجال نخلص إلى أن العبادة في المفهوم القرآني: هي الاتباع والتسليم والطاعة المطلقة أمام قدرة واقعية أو وهمية طوعاً ورغبة أو كُرها وإلزاما، مع الشعور بالتقديس والثناء المعنوي أو بدونه.. هذه القدرة هي «المعبود» وهذا المطيع هو «العبد» و «العابد».

من خلال الإطار العام للمفاهيم المتقدمة يتضح معنى لفظة «الألوهية» ولفظة «الله» باعتبارهما تعبيراً آخر عن كلمة «المعبود»:

في النظام الجاهلي المنحرف المنقسم الى طبقتين: مستكبرة ومستضعفة، أي المنقسم الى طبقة مسيطرة ماسكة بزمام جميع الأُمور ومترفة طبعا، وطبقة مهملة مسخرة ومحرومة لزاما، وأبرز مظاهر الألوهية والعبودية هي هذه العلاقة غير المتعادلة بين الطبقتين.

من العبث أن نبحث وراء موجود مقدس بشري أو حيواني أو جامد، في

دراسة آلهة المجتمعات الجاهلية على مرّ التاريخ. فأبرز مظهر للمعبود والإلهْ في هذه المجتمعات، هو تلك الفئة التي تمارس، اعتماداً على ارتباطها بالطبقة المستكبرة، عمليةَ إخضاع وإرضاخ الجماهير المستضعفة ودفعها على طريق إشباع نهمها وجشعها.

الدين الواقعي في هذه المجتمعات، هو «الشرك». لأن الآلهة فيها متعددة بتعدد مراكز القوة المسيطرة التي تستثمر الناس على طريق أهوائها.

الشرك هو تأليه أفراد إلى جانب الله أوبدلاً من الله. وبتعبير آخر هو: إيكال أُمور الحياة الى غير الله. وهو الإستسلام أمام كل قدرة غير الله، والاتجاه نحو هذه القدرة لدى الحاجة، والسير على طريقها.

التوحيد يقع في النقطة المقابلة للشرك تماماً: يرفض كل هذه الآلهة، ويرفض التسليم لها، ويقاوم سيطرتها، ويحصّن القلوب من الركون إليها، ويدفع الى إزالتها وطردها، ويشدّ الكائن الإنساني بكل وجوده إلى الله.

أول شعار رفعه رُسُل الله هو ذلك الرفض وهذا التسليم:

وَلَقَد بَعَثنا في كلّ أمةٍ رسولا أن اعبدوا اللّهَ واجتَنبوا الطاغوت.

(النحل، ٣٦)

وما أرسَلنا مِنْ قَبلِكَ مِنْ رَسولٍ إلاّ نُوحي إليهِ أنّهُ لا إله إلاّ أنا فاعبدون.

(الأنبياء، ٢٥)

الانبياء إذن أعلنوا زوال النظام الجاهلي الفاسد المنحط بهذا الشعار. وبهذه الشعار أيضا دعوا الى كفاح مرير للطواغيت، أي لحماة هذا النظام وللمستهينين بالقيم الإنسانية الأصيلة ولأصحاب تلك القيم التافهة

المساندة للظلم والظالمين.

رفض الشرك هو في الواقع رفض لكل الكيانات الإجتماعية والسياسية والإقتصادية المقومة للمجتمع الجاهلي، والمتخذة من مذهب الشرك غطاء وتبريراً لوضع المجتمع المهزوز.

رفض الآلهة المزيفة، يعني طرد كل الذين دأبوا على استضعاف الجماهير، واستغلالها عن طريق القوة والتزوير، من أجل إشباع غرائزهم وأهوائهم الجامحة.

موسىٰ اتجه الى حرب فرعون بهذا الشعار.. نعم لقد تردّد على ألسن بطانة فرعون مسألة رفض موسى لآلهتهم التقليدية:

وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسىٰ وقومَه لِيُفسدوا في الأرضِ ويذَرَكَ وآلهتك.

(الاعراف، ١٢٧)

غير أن فرعون و من لفّ لفه كانوا يعلمون جيداً أن تلك «الآلهة»، أي الاصنام الجامدة، ليست إلا غطاء وتبريراً لألوهية فرعون وأتباعه. الصنم الجامد كان في الحقيقة تبريراً لتأليه الأصنام الحية، لذا كان من المنطقي تماماً أن يقف فرعون من دعوة موسى، أي من الدعوة الى اللّه الواحد الأحد باريء السماوات والأرض، موقف المهدّد بالسجن وبقتل مَنْ آمن به وتعذيبهم:

قالَ لَئن اتّخذْتَ إلٰهاً غيري لا جعلنّكَ مِنَ المسْجُونين.

الشعراء، ٢٩)

قالَ سنقتُل أبناءهم ونستحيي نساءهُم وإنا

فَوقَهم قاهِرون.

(الاعراف، ١٢٦)

لأُ قَطِعَنّ أيـدِيَكُم وأرجُلَكُم مِـنْ خِـلافٍ ثُـمّ لأُصلبَنّكُمْ أجمَعين.

(الاعراف، ١٢٣)

كل هذا التعنّت والتصلب أمام اسم «اللّه» ودعوة التوحيد، يعود إلى أن هذا النداء لا يعني إلاّ:

الإيمان بحاكمية اللّه وحدها علىٰ الحياة...

ورفض الآلهة المزيفة...

والارتباط به وحده وتمزيق كل قيود العبودية الاخرىٰ...

وهذه هي روح التوحيد وأبعاده البناءة النابضة بالحياة.

والسلام عليكم ورحمةاللّه وبركاته

جمهورية ايران الاسلامية
وزارة الإرشاد الاسلامي

Princeton University Library
32101 060154364